التفسير الإشاري و موقف الشريعة منه

د. حافظ عبدالرحيم*

لم يكن التفسير الإشاري بأمر جديد في إبرازمعاني القرآن الكريم و مفاهيمه ، بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أشار القرآن الكريم و نبه عليه محمد صلى الله عليه وسلم و عرفه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

قبل أن نذكر الأدلة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بهذا الصدد يطيب لنا أن نعطي لمحة سريعة عن طبيعة التفسير الإشاري.

أولا: التفسير الإشاري

من بنى تصوفا على مباحث نظرية ، وتعاليم فلسفته فكان من البدهي أن ينظر هؤلاء المتصوفة إلى القرآن نظرة تتمشى مع نظرياتهم و تتفق مع تعاليمهم . وليس من السهل أن يجد الصوفي في القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه ولا مايتمشى بوضوح مع نظرياته التي يقول بها ، إذ أن القرآن عربي جاء لهداية الناس لا لإثبات من النظريات ، ربما كانت في الغالب مستحدثة و بعيدة عن روح الدين و بداهة العقل.

غير أن الصوفي يحاول أن يجد فى القرآن ما يشهد له أو يستند إليه. فتراه من أجل هذا يتعسف في فهمه للآيات القرآنية ، ويشرحها شرحا يخرج بها عن ظاهرها الذي يؤيده الشرع متشهد له اللغة (١)

---

* محاضر قسم اللغة العربية ، جامعة بهاء الدين زكريا، ملتان.

ثانيا: التفسير الصوفي الفيضي أو الإشاري

التفسير الفيضى أو الإشاري: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك · ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة.

الفرق بينه وبين التفسير الصوفي النظري من وجهين:

الوجه الأول: أن التفسير الصوفي النظري يبني على مقدمات علمية في ذهن الصوفي أولا · ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك .

أما التفسير الإشارى · فلا يرتكز على مقدمات علمية · بل يرتكز على رياضة روحية يأخذبها الصوفى نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها ماتحمله الآيات من المعارف السبحانية والإشارات القدسية والأسرار المخفية.

الوجه الثاني: أن التفسير الصوفى النظرى يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعانى · وليس ورائه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه.

أما التفسير الإشارى فلا يرى الصوفى أنه كل ما يراد منه الآية· بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولا وقبل كل شئ ذلك هو المعنى الظاهر الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره(٢).

يعنى التفسير الإشارى هو الذى تئوول به الآيات على غير ظاهرها مع محاولة الجمع بين المعنى الظاهر والمعنى الخفى.

ويعتمد على الرياضة الروحية يأخذبها الصوفى نفسه إلى أن يصل إلى مرحلة ينكشف له فيها ما تحمله الآيات من المعارف والإشارات واللطائف والأسرار. إذا كان ذلك استنباطا حسنا يوافق مقتضى ظاهر العربية وكان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض· فإنه يكون مقبولا.

هناك مصطلحات استخدمها أصحاب التفسير الإشارى بوفرة فى كتبهم· وهى: "قال أهل الإشارات" و "قال أهل المعرفة" و "قال أهل التحقيق" و "قال أرباب السلوك". ومثل هذه المصطلحات تكثر فى تفسير

لطائف الإشارات للإمام القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥هـ. وفى تفسير حدائق الحقائق للعلامة معين الدين الفراهى الهروى المعروف "بملا مسكين" م ٩٠٨هـ ، وفى تفسير كشف الأسرار وعدة الأبرار لرشيد الدين أبى الفضل الميبدى (ولم يذكر تاريخ وفاته فى كتب التراجم إلا أنه يعدّ من علماء القرن السادس الهجرى).

فالمفسرون من علماء الشريعة وقفوا عند ظاهر اللفظ وما دل عليه الكلام من الأمر والنهى ، والقصص والأخبار والتوحيد ونحو ذلك.

وأهل التحقيق أو الصوفية يقرون تفسيرهم هذا ويرونه الأصل الذى نزل فيه القرآن ، ولكن لهم فى كلام الله مع الأخذ بهذا التفسير الظاهرى مذاقات يمكنهم إغفالها ، لأنها بمثابة واردات أو هواتف من الحق لهم.

من هنا مذاقات الصوفية وأهل الإشارات فى القرآن الكريم وفهم مراده ، وهم لا يرون أن تلك المذاقات وحدها هى المرادة ، وأنها يأخذونها إشارات من الله لهم بعد إقرار ما قاله أهل الظاهر من تفسير باعتبارهم أهل التشريع ، على أن تلك الإشارات أمر مشروع أقّره الحديث: "إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلقبا"؟(٣).

فإذا دار المفسرون فى حدود اللفظ القرآنى ، واستنبط منه الفقهاء من أحكام فالأولى الألباب وذوى البصائر فيه بعد ذلك من الأسرار والحقائق ما لا ينكشف لسواهم ولا يدركه غيرهم ، وذلك لتجدد واردات الحق لهم ، ودوام تنزل فيوضات على قلوبهم ، لأنهم أهله ومحبوه.

وفيض الله المتجدد فى كلامه لهم لما يزيد فى كمال إعجاز القرآن ويئوكد أن إعجازه أسمى من أن يكون فى فصاحة لفظه وقوة أثره وبلاغة أسلوبه وإنما إعجازه فوق ذلك فى أسراره ومعانيه ومراده ومراميه. وأهل الله أولى الناس بتفهم مراده ومعرفة مرامى كلامه. ومن ثم

كان ما ينكشف لهم فى كلام الله من أسرار بمثابة إشارات لهم وحدهم، لأن الإشارة لغة المحب مع المحبوب، والإشارة بعد ذلك تلويح للمراد لا إفصاح عنه لعدم قدرة الألفاظ على تحمل المراد ، لان تحدد ما يشيرون إليه، وما يشيرون إليه يكون عن مشاهدة، ومايشاهدونه ليس بمحدود ، إذ هو من عالم الغيوب، فلا اللفظ قادر على تحديد المراد ولا قابليات المعقول تطيق ذلك. ومن ثم سميت مذاقاتهم فى القرآن إشارات و لم تسع تفسيرا(٤). ومثل هذه المصطلحات "بأهل الإشارات" و "أهل المعرفة" و "أرباب السلوك" و "أهل التحقيق" تكثر فى كتب. التفسير الإشارى. كما سيأتى ذكرها بالتفصيل عند التحدث عن أهم كتب التفسير الإشارى.

وقد تحلّى القرآن الكريم مثل تلك الإشارات من رموز الحواميم والم وطسم والروالمر... الخ. ويقول الاستاذ حسين عباس زلى صاحب مقدمة لطائف الإشارات للإمام القشيرى: "إن هذه الرموز هى إشارات بين الحق ورسوله أو "شغرات" ـ بالتعبير الحديث بين المحبوب وحبيبه ، ولا يعرف حلها إلا من لديه مفتاحها. ومفتاح تلك الإشارات الفهم لمراد المشير ، وهم بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ ورثته من العلماء وأوليائه" (٥).

فأما ما قيل عن هذه رموز القرآن فمثلا الر: أصح الأقوال فيه، وفى أمثاله من الفواتح المقطعات: إن علمها مستور ، وسرّها محجوب، استأثر الله به ، فنحن نؤمن بظاهرها ، ونكل العلم فيها إلى الله عزوجل . وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها ، والتخاطب بالحروف المؤدة سنة الأحباب فى سنن المحاب ، وهو سرّ الحبيب مع الحبيب حيث لا يطلع عليه الرقيب:

بين المحبين سرّ ليس يفشيه

قول ولا قلم للخلق يحكيه (٦)

روى عن أبى بكر الصديق ـ رضى ا لله عنه ـ :فى كل كتاب سرّ وسرّه أى سرّ ا لله فىالقرآن أوائل السور (٧).

كذلك للعلماء سرّ وللخلفاء سرّ ، وللأنبياء سرّ ، وللملائكة سرّ ، و لله تعالى من بعد ذلك كله سرّ. فلو اطلع الجهال على سرّ العلماء لأجادوهم ، ولو اطلع العلماء على سرّ الخلفاء لنا بذوهم ، ولو اطلع الخلفاء على سرّ الأنبياء لخالفوهم، ، ولو اطلع الأنبياء على سرّ الملائكة لاهموهم ، ولو اطلع الملائكة على سر ا لله تعالى اطاحوا حائرين ، وبادروا بائدين ، والسبب فى ذلك أن العقول الصعبة لا تحتمل الأسرار القوية ، كما لا يحتمل نور الشمس أبصار الخفافيش"(٨).

وسئل الشعبي عن هذه الحروف. فقال: سر ا لله فلا تطلبوه.(٩)

وقد ورد في الروضة الخضراء لأهل العشق والصفاء للشيخ الحافظ محمد أحسن البشاروي(١٠) م ١٢٦٣هـ " قال أهل الإشارات: إذا أراد الحبيب أن يبين على الحبيب أسرار المحبة يتكلم معه بالرمز والأشارة ، حتى لا يفهمها الأغيار".(١١)

أهل التحقيق لا يدعون أنه محال على غيرهم ما يفاض به عليهم ، ولكنهم يعتقدون أن كل إنسان لديه الاستعداد لما عندهم غير أنهم فتحوا عيون قلوبهم ، فاطلعوا على ما اطلعوا من أسرار ، وغيرهم فتحوا نوافذ تفكيرهم فوقعوا في الحيرة والوهم ، وقاموا بعقولهم مذاقات تلك القلوب فأنكروها ، ولو أنهم فتحوا عيون قلوبهم كأهل ا لله لكان أمرا عاديا ما استغربوه بل لا عتقدوا اعتقادا جازما ما أنكروه.

فليع كل ذي لبّ قدر هؤلاء الصفوة من أهل التحقيق وارجع إلى الصدر الأول من عصر المسلمين الزاهر تجد أن من أئمة هؤلاء الملهمين سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى ا لله عنه ـ والذى قال فيه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم:

"إن من أمتي مكلمين ومحدثين وأن عمر منهم".(١٢)

ومنهم الإمام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه– الذي إشار إلى صدره بعد أن تأوه مرتين ، ثم قال: "إن هاهنا علوما جمّة ... لو وجدت لها حملة!!!"

ويروى عنه ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: "لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير الفاتحة" .(١٤)

اولئك هم العلماء بحق الذين عناهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله: "أن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة (١٥) بالله عزوجل. (١٦)

خصائص علم الإشارات

(١) علم الإشارات لا ينظر إلى قصص الأنبياء فى القرآن الكريم على أنها قصص انتهت بانتهاء أممهم وأن تلاوتها الآن للعظة والاعتبار فحسب ، وإنما يرون مع ذلك أن الخطاب بها ما زال قائما يوجه إلى الإنسان في كل عصر وأوان باعتبار مملكة الله الصغرى التي انطوى فيها العالم كله فمثلا يرمزون لموسى بالقلب أو الروح وإلى فرعون بالنفس.

وبذلك يكون القرآن فى حالة تجدد نزول لم ينته الخطاب بانتهاء زمانه باعتباره كلام الله وصفته القائمة بذاته ، وتظل بذالك صفة الكلام قائمة غير معطلة لم تنته بنزول الكتب السماوية فما زال الحق سبحانه متكلما أبدا.

(٢) علم الإشارات يكشف عن صدق أهله مع ربهم وأمانتهم عند الحديث عن كلامه فكل ما قاله القرآن وما تناولته الفاظه من أداء هو فى مذهبهم حقيقة لا يعرفون مجازا ولا يلجؤن إلى كناية لأنهم بما شاهدوا وذاقوا يدركون هذه الحقائق. ولما كانت تلك مواجيد و أدواق لا يمكن نقلها إلى الخيز بعبارة رمزوا لها وأشاروا.(١٧)

وهكذا نرى أن أهل الله أمناء على كلامه ، دفعتهم غيرتهم على محبوبهم ،وعظيم احترامهم لجنابه وإكبارهم لكلامه ألا يميلوا عن منطوق ألفاظه إلى مجاز أو كناية خشية البعد عن مراده . ولم ألجأوا إلى لمجاز مادام للحقيقة عنه مخلص؟ فهم لا يرون فى قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ (١٨)، أن السؤال لأهلها فحسب بتقدير مضاف كما قيل: أى واسال أهل القرية، وإنما السؤال للقرية بكل ما فيهما ومن فيها ماداموا يشاهدون تسبيح الجماد ونطق الحيوان. واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾.(١٩) وقوله تعالى: ﴿ يا جبال أوّبي معه والطير ﴾ وقوله تعالى فى حق السماء والأرض: ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ (٢١) ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ (٢٢).

وعلى ذلك فلا يكون سؤال القريةقاصرا على أهلها لأنه سؤوال لما فيها ومن فيها. والمخاطب بذلك لو كأنت لديه الخصوصية لخاطب القرية بكل ما تحتويه من كائنات.

اطلع أهل التحقيق أو الإشارات على سرّ الله في أقضيته و مقدراته وتحققوا بذلك فاستراحوا وملأت قلوبهم السكينة وأفئدتهم الطمأنينة فاستشعروا فى حياتهم من السعادة ما لم يذقه غيرهم؟ ذلك لأنهم فتحوا عيون قلوبهم و لم يقيسوا بعقولهم ، لأن العقل بحاله محدود لا يكشف مهما كانت قدرته عما وراء الغيوب وإلا فيم يعلل العقل رؤية نبينا لموسى عليهما الصلاة والسلام مرتين فى قصة الإسراء والمعراج مرة ببيت المقدس وهو يصلي ورائه وأخرى في السماء وهو يراجعه في أمر الصلاة مع أن موسى لم يترك قبره و لم يفارق مثواه والعقل بحار أيضا أمام حديث سجود الشمس تحت العرش كل يوم وأنها لا تطلع حتى يؤذن لها بالطلوع مع أنها لا تغيب عن الكون لحظة وتكثر الأمثلة شبه ذلك.

الاستشهاد بالقرآن الكريم:

أما الآيات الكريمة التي أشارت إليه فهي:

(١) قوله تعالى: ﴿فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾(٢٣).

(٢) قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾(٢٤).

(٣) قوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾(٢٥).

فهذه الآيات الشريفة كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر و بطن، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا ، ويحضهم على التدبر في فهم ظاهره ، لأن القوم عرب ، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولاشك. وإنما أراد بذالك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصودا لله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه و لم يصلوا إليه بعقولهم(٢٦).

الاستشهاد بالحديث النبوي:

وأما الأحاديث التى نبه فيها الرسول صلي الله عليه وسلم إلى ذلك فهو ما أخرجه الفريابي من رواية الحسن مرسلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿ لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع﴾. وما أخرجه الديلمي من رواية عبدالرحمن بن عوف مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد﴾ (٢٧).

لقد صرح هذان الحديثان بأن القرآن له ظهر وبطن . وما المراد بالظهر والبطن ؟ اختلف العلماء فيهما ، فقال بعضهم: إن ظاهر القرآن لفظه ، وباطن القرآن تأويله وقال الآخرون: إن القصص التى ذكرها الله

سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ظاهر الأخبار عن هلاك الأولين وباطنها تحذير للآخرين.

فأشهر الأقوال بهذا الصدد هو لابن النقيب حيث قال: ظهره أي القرآن ما ظهر من معانيه لأهل العلم ، وبطنه ما تضمنته من الأسرار التي اطلع الله عليها أهل الحقائق (٢٨).

وأما قوله في الحديث الأول : " ولكل حرف حدّ " فمعناه على ما قيل: لكل حرف حد ، أي منتهى فيما أراد الله من معناه ، أو لكل حكم مقدور من الثواب والعقاب والأول أظهر . وقوله: " ولكل حد مطلع " معناه على ما قيل أيضا: لكل غامض من المعانى والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به .وقيل: كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع عليه في الآخرة عند المجازاة والأول أظهر (٢٩).

وأما الروايات الدالة على أن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ فسروا القرآن تفسيرا إشاريا ، فما رواه البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: " كان يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معناه ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فادخله معهم ، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم .قال : ما تقولون في قوله تعالي: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ (٣٠). فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفر إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لي أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت لا . قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلمه له . إذا جاء نصر الله والفتح ، وذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول ....(٣١)

فلم يفهم بعض الصحابة من السورة أكثر من معناها الظاهر : أما ابن عباس وعمر ـ رضى الله تعالى عنهم ـ فقد فهما معنى آخر وراء الظاهر ، هو المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريق الإشارة.

وايضا ما ورد من أنه نزل قوله تعالى: ﴿ اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (٣٢). فرح الصحابة وبكى عمر ـ وقال مابعد الكمال إلا النقص ، مستشعرا نعيه عليه الصلاة والسلام ، فقد أخرج ابن أبى شيبة : (أن عمر لما نزلت الآية بكي ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما يبكيك ؟ قال أبكاني أنا كنا فى زيادة من ديننا ، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص ، فقال عليه الصلاة والسلام: صدقت﴾(٢٣).

فعمر أدرك المعنى الإشاري: وهو نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقره النبي على فهمه هذا. وأما باقي الصحابة فقد فرحوا بنزول الآية ، لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها.

كذلك الروايات التي او ردناها عند التحدث عن طبيعة التفسير الإشاري فهي تدل على ذلك.

وهذه الأدلة كلها تفيد أن القرآن الكريم له ظهر وبطن... ظهر يفهمه كل من يعرف اللغة العربية. وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصيرة ، غير أن المعاني الباطنية المكتشفة لا تقف عند الحد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة ، بل هي أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور.

ولقد فهم ابن مسعود أن في فهم معاني القرآن ومطالبه مجالا متسعا ، فقال: "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن".(٣٤)

وإلى هذا أشار الله عزوجل بقوله: ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾(٣٥). وأيضا قال تعالى: ﴿ ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء﴾(٣٦).

تبين لنا مما سبق أن القرآن له ظهر وبطن ، فظاهر القرآن ــ وهو المنزل بلسان عربي مبين ـ وهو المفهوم العربي المجرد . وباطنه هو مراد الله تعالى وغرضه الذي يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب.

وإن كل ما كان من المعاني القريبة التي لا يبني فهم القرآن إلا عليها داخل تحت الظاهر ، فالمسائل البيانية ، والمنازع البلاغية ، لا معدل لها عن ظاهر القرآن . فإذا فهم الإنسان مثلا الفرق بين (ضيق) في قوله تعالى: "فمن يرد الله أن يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء" (٣٧) وبين (ضائق) في قوله تعالى: فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك "(٣٨).

وعرف أن "ضيق" صفة مشبهة دالة على الثبوت والدوام في حق من يرد الله أن يضله ، وأن "ضائق" اسم فاعل يدل على الحدوث والتجدد وأنه أمر عارض له ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا فهم الإنسان مثل هذا فقد حصل له فهم ظاهر القرآن.

إذا فلا يشترط في فهم ظاهر القرآن زيادة على الجريان على اللسان العربي ، وإذا كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من تفسير القرآن في شي... لا مما يستفاد منه ولا ما يستفاد به.

أما المعنى الباطن فلا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده بل لا بد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير ، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمرا خارجا عن مدلول اللفظ القرآني ، ولهذا اشترطوا لصحة المعنى الباطن شرطين اساسين:

الأول: أن يصح على مقتضى الظاهر المقدر في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية.

والثاني: أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.(٣٩)

إذا توافر هذان الشرطان في معنى من المعاني الباطنية قبل ، لأنه معنى باطن صحيح ، وإلا رفض رفضا باتا.

وأما أقوال القوم في معاني القرآن الباطنية فوجدناها كثيرة منها يمكن أن يكون من قبيل الباطن الصحيح ، ومنها أيضا هو من قبيل الباطن الفاسد المرفوض. فمن الأفهام الباطنية المنقولة عنهم ويمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح كما اورده الشيخ التستري في تفسير قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون﴾(٤٠). ويفسر التستري لقوله تعالى: "أندادا" أي أضداد ، فأكبر الأضداد: النفس الأمارة بالسوء ، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله"(٤١) فيشير قوله إلى أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد حتى لو فصل لكان المعنى: فلا تجعلوا لله أندادا لا صنما ، ولا شيطانا، ولا النفس ، ولا كذا ولا كذا... وهذا مشكل من حيث الظاهر ، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن يدل على أن الأنداد مرادبها كل ما يعبد من دون الله ، سواء أكان صنما أم غير صنم ، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم ، و لم يعرف أنهم اتخذوها أرباب من دون الله ، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح.

آراء بعض العلماء فى التفسير الإشاري:

(١) وقد علق سعد الدين التفتازاني على رأي النسفي فى كتابه العقائد، وهو: "النصوص على ظواهر ، فالعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد " فقال: وسموا الباطنية لإدعائهم أن النصوص ليس على ظواهر ، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم ،وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية ... ثم قال: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن

النصوص محمولة على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ومحصن العرفان"(٤٣).

(٢) ونقل السيوطي عن ابن عطاء الله السكندري أنه قال: "اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله و كلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة لظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان . وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه وقد جاء في الحديث:" لكل آية ظهر وبطن– كما سبق ذكره – فلا يصدنك عن تلقى هذه المعاني منهم أن يقول لك ذوالجلال ومعارضته: هذا إحالة لكلام الله ورسوله... فليس ذلك بإحالة ، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا ، وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا موضوعاتها و يفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم.(٤٣).

فهؤلاء العلماء حسنوا ظنهم بالقوم، فحملوا أقوالهم الغريبة التي قالوها في القرآن على أنها إشارات خفية ، ومعان إلهامية ، تنهل على قلوب العارفين وتزهوهم عن إرادة التفسير الحقيقي لكتاب الله بمثل هذه الشروح الغريبة التي نقلت عنهم. وهذا عمل جميل من هؤلاء العلماء.

(٣) قال ابن الصلاح في فتاواه:" وجدت عن الإمام ابي الحسن الواحدي المفسر أنه قال: صنف أبو عبدالرحمن السلمي حقائق التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير كفر. قال ابن الصلاح: وأناأقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئا من أمثال ذلك لم يذكره تفسيرا، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية ، وإنما ذلك ذكر ومنهم لينظر ما وردبه القرآن ، فإن النظير يذكر بالنظير ، ومن ذلك قتال النفس في الآية المذكورة – يريد قوله تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من

الكفار﴾(٤٤) فكأنه قال أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار ، ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لمافيه من الإبهام والإلباس".(٤٥).

(٤) قال ابن عربي:" إن الله عزوجل لما خلق الخلق، خلق الإنسان أطوارا ، فمنا العالم و الجاهل، ومنا المنصف والمعاند، ومنا القاهر ومنا المقهور، ومنا الحاكم ومنا المحكوم. وما خلق الله آشق ولا أشد من علماء الرسول على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهى الذي منحهم أسراره في خلقه ، وفهمهم معاني كتابه و إشارات خطابه ... لما كان الأمر فى الوجود الواقع على ما سبق به العلم القديم عدل أصحابنا إلى الإشارات ، فكلامهم في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات ... وإن كان ذلك حقيقة و تفسيرالمعانيه النافعة ، ورد ذلك كله إلى نفسهم مع تقريرهم إياه في العموم ، وفيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل الكتاب بلسانهم، فعم به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالى:﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ يعني الآيات المنزلة في الآفاق و في أنفسهم ، فكل آية منزلة لها وجهان: وجه يرونه في نفوسهم ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم ، فيسمون ما يرونه في نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ، ولا يقولون في ذلك إنه تفسير ، وقاية لشرهم و تشنيعهم في ذلك بالكفرعليه ، وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق ، واقتدوا في ذلك بسنن الهدى ، فإن الله كان قادرا على تنصيص ما تأوله أهل الله في كتابه و مع ذلك فما فعل : بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية التي نزلت بلسان العامى علوم معاني الإختصاص إلى فهمها عبادة حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذي رزقهم ...".(٤٧).

و يقول الدكتور محمد حسين الذهبى(٤٧) ردا على ذلك:" ونحن لا ننكرعلى إبن عربي أن ثم افهاما يلقيها الله فى قلوب اصفيائه و أحبائه، يخصهم بها دون غيرهم ، على تفاوت بينهم في ذلك بمقدار ما بينهم من

تفاوت في درجات السلوك و مراتب الوصول كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيرا للقرآن و بيانا لمراد الله من كلامه ، ولكن بشرط أن تكون هذه الأفهام يمكن ان تدخل هذه الافهام خارجة عن مدلول اللفظ العربى القرآنى وأن يكون لها شاهد شرعى يؤيدها. خارجة عن مدلول اللفظ العربى القرآني ، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى ، لأن القرآن عربي قبل كل شي. والله تعالى يقول في شأنه :" كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون"(٤٩) حاشا لله أن يلغز في آياته ، أو يعمى على عباده طريق النظر في كتابه ، وهو يقول: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾(٥٠).

و يرى هناك من الباطنيين مثل الشيعة والإسماعيلية والمتصوفة من أصحاب الإتجاه الفلسفي من فسر القرآن تفسيرا باطنا محضا وتركوا الظاهر كليا. واعترفوا بالباطن فقط ولا شك أن ذلك في ميزان الشريعة الإسلامية ضلال وإلحاد.

و أما الصوفية من الزهاد أو المتصوفة العمليين أو أصحاب اتجاه التوصف السنن فقد فسروا القرآن تفسيرا إشاريا ولكنهم اعترفوا بظاهره و لم يجحدوه كما اعترفوا بباطن القرآن. ولكنهم خلطوا كذلك أحيانا الصالح بالطالح في تفسير فمنها ما هو المقبول ومنها ما هو المرفوض. ولذلك حدد العلماء شروطا للتفسير الإشاري لتجعله مقبولا.

شروط قبول التفسير الإشاري

تبين لنا أن التفسير الإشاري منه ما هو مقبول ومنه ما ليس بمقبول. التفسيرالإشاري المقبول هو الذي توافرت فيه الشروط (٥١) التي حددها العلماء ، وهي:

١- ألا يكون التفسير الإشاري منافيا للظاهر من النظم القرآني.

٢- أن يكون له مشاهد عربي يؤيده.

٣- ألا يكون له معارض شرعي.

٤- ألا يدعي المفسر أن تفسيره الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر بل لا بد أولا من الإعتراف بالمعنى الظاهر وقبوله والتسليم به.

وقال الإمام السيوطي - رحمه الله - بهذا الصدد: " من ادعى فهم أسرار القرآن و لم يحكم التفسير الظاهر " فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب".(٥٢).

هنا تجدر بالإشارة إلى أن القول بكون التفسير الإشاري الذي توفرت فيه الشروط مقبولا ، لا يعني و جوب الأخذبه ، لأن ذلك من قبيل الوجدانيات التي لا تعتمد على دليل فكما هو معلوم لأهل العلم ، أن الوجدانيات مثل الرؤيا والمكاشفة لا تعتبر من الأدلة الشرعية ولا يترتب عليها أي حكم ، فالأحكام الشرعية تترتب على المعنى الظاهر للنصوص الشرعية فقط ... إنما الوجدانيات هي أمر يجده الصوفي من نفسه ، وسربينه وبين ربه . فله أن يأخذ به و يعمل على مقتضاه ، دون أن يلزم به أحدا من الناس سواه.

من أهم كتب التفسير الإشاري

دراسة منهجية

من علماء المفسرين من لم يتعرض للتفسير الإشاري مع التركيز على التفسير الظاهر ، كما فعل الزمخشري م ٥٣٨هـ صاحب الكشاف ، والقاضي البيضاوي م ٦٩١هـ صاحب التفسير البيضاوي . ومنهم من تعرض للتفسير الإشاري بقدر مع غالب تركيزه على التفسير الظاهر كالنيسابوري م ٧٠٨هـ صاحب غرائب القرآن.... والآلوسي م ١٢٧٠هـ صاحب روح المعاني و منهم من تعرض أحيانا للتفسير الظاهر ولكنه ركز فيه على جانب التفسير الإشاري، كسهل بن عبد

ومنهم من غلبت عليه همته كلها للتفسير الإشاري و لم يحم حول المعاني الظاهرة ، كما فعل أبو عبدالرحمن السلمي م ٤١٢هـ صاحب حقائق التفسير.

وهنا يكفي أن نتحدث عن أهم الكتب التي وجه أصحابها فيها كل عنايتهم نحو التفسير الإشارى ومنها:

١- تفسير القرآن العظيم للتسترى:

طبع هذا التفسير في مجلد صغير الحجم و لم يتعرض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية ، بل تكلم عن آيات محدودة و متفرقة من كل سورة . ويبدو أن سهلا لم يؤلف هذا الكتاب ، وإنما هي أقوال قال سهل في آيات متفرقة من القرآن الكريم . ثم جمعها أبوبكر محمد بن أحمد البكري في أول الكتاب . والذي يقول كثيرا ، قال أبوبكر: سئل سهل عن معنى كذا . فقال كذا ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه.

فتجد في هذا الكتاب مؤلفه يقدم بمقدمة يوضح فيها معنى ظاهر القرآن وباطنه ، و معنى الحد والمطلع ، فيقول:" ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهره و باطنه وحد و مطلع- كما سبق ذكرها- فالظاهر: التلاوة ، والباطن: الفهم ، والحد: حلالها وحرامها والمطلع: إشراق القلب على المراد بها فقها من الله عزوجل فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص ، قال تعالى:﴿ فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾(٥٣) " أي لا يفقهون خطابا"(٥٤).

و يقول في موضع آخر : قال سهل: " إن الله تعالى ما استولى وليا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا علمه القرآن ، إما ظاهرا و إما باطنا . قيل له : إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو؟ قال:فهمه . وإن فهمه هو المراد"(٥٥).

فمن هاتين العبارتين نأخذ أن سهلا التستري يري: أن الظاهر هو المعنى اللغوي المجرد. وأن الباطن هوالمعنى الذي يفهم من اللفظ و يريده

ا لله تعالى من كلامه ، كما نأخذ منه: أنه يرى أن المعاني الظاهرة أمر عام يقف عليهاكل من يعرف اللسان العربي، أما المعاني في الباطنة ، فأمر خاص يعرفه أهل ا لله بتعليم ا لله إياهم وإرشادهم إليه.

كذلك نجد سهلا لم يقتصر في تفسيره على المعاني الإشارية وحدها ، بل يذكر أحيانا المعاني الظاهرة ، ثم يعقبها بالمعاني الإشارية. وقد يقتصر أحيانا على المعنى الإشاري وحده كما يقتصر أحيانا على المعنى الظاهري دون المعنى الباطني.

كما ينحو المؤلف فيه منحي تزكية النفوس، وتطهير القلوب ، والتحلي بالأخلاق والفضائل التي يدل عليها القرآن ولو بطريق الإشارة ... وكثيرا ما يسوق من حكايات الصالحين وأخبار العارفين شاهدا لما يذكره ، وقد يتعرض لدفع إشكالات ترد على ظاهر اللفظ الكريم.

و يقول في تفسيره لقوله تعالى:﴿ واتخذ قوم موسى من بعده منحليهم عجلا جسدا له خوار ﴾ (٥٦):" عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عند ا لله من أصل وولد. ولا يتخلص من ذلك إلا بعد افناء جميع حظوظه من أسبابه ، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس"(٥٧).

ويقول في تفسيره لقوله تعالى(حكاية عن إبراهيم عليه السلام): ﴿ الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذى يميتنى ثم يحيين﴾. والذى اطمع ان يغفرلى خطيئتى يوم الدين (٥٨) . الذي خلقني فهو يهدين" أي الذي خلقني لعبوديته يهدينى إلى قربه" الذي هو يطعمني ويسقين " أي يطعمني لذة الإيمان ويسقيني شراب التوكل والكفاية. "وإذا مرضت فهو يشفين" قال: يعني إذا تحركت بغيره لغيره عصمني ،وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منعها عني ." والذي يميتني ثم يحيين" قال: الذي يميتني ثم يحييني بالذكر ." والذي أطمع أن

يغفر لي خطيئتي يوم الدين" قال: أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء ، و لم يحكم عليه بالمغفرة:(٥٩).

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ (٦٠) قال ما نصه: " إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه ، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب ، فلما خلص السر له ، ورجع عن عادة الطبع ، فداه بذبح عظيم"(٦١).

فهذه المعاني كلها مقبولة ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللفظ القرآني بدون معارضة شرعية أو عقلية وفي الغالب يسير تفسيره على هذا النمط.

حقائق التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو عبدالرحمن السلمى م ٤١٢هـ كان شيخ الصوفية و عالمهم بخراسان له اليد الطولى في التصوف والسير على سنن السلف.

ويقع حقائق التفسير في مجلد واحد كبير الحجم و منه نسختان مخطوطان بالمكتبة الأزهرية رقم(١٠٩٣).

ويقول الدكتور الذهبى :" قرأت هذا التفسير ، فوجدته أن مؤلفه يستوعب جمع سور القرآن ، ولكنه يتعرض لكل الآيات بل يتكلم عن بعضها و يغني عن بعضها الآخر ، وهو لا يتعرض فيه لظاهر القرآن ، وإنما جرى في جميع ما كتبه على نمط واحد . وهو التفسير الإشاري ، وهو إذ يتقصر على ذلك لا يعني أن التفسير الظاهر غير مراد ، لأنه يصرح في مقدمة تفسيره: " أنه أحب أن يجمع تفسير أهل الحقيقة في كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر . وهذا التفسير لا يكون أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة، ورتبها على حسب السور والآيات ...(٦٢).

وحين اقتصر على المعاني الإشارية لم يجحد المعاني الظاهرة للقرآن ولتعلم أيضا أن مجهوده في هذا التفسر إنما هو الجمع والترتيب.

وأهم من ينقل عنه السلمى في تفسيره : جعفر الصادق ، وابن عطاء الله السكندري ، والجنيد والفضيل بن عياض والتستري وغيرهم.

قال السلمي : " لما رأيت المترسمين بالعلوم الظواهر سبقوا في أواع فرائد القرآن: من قراءات ، وتفاسير ، وشكلات ، وأحكام ، وأعراب ، ولغة ، وجمل ، ومفسر ، وناسخ ، ومنسوخ ، ولم يتشغل أحد مهم بجمع فهم خطابه على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة نسبت إلى ابي العباس بن عطاء و آيات ذكر أنها عن جعفر على غير ترتيب. وكنت قد سمعت منهم في ذلك حروفا استحسنها ، أحببت أن أضم ذلك إلى مقالتهم ، وأهم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتي . واستخرت الله في جمع شيء من ذلك واستعنت به في ذلك و في جميع أموري وهو حسبي ونعم المعين"(٦٣).

طعن بعض العلماء على هذا التفسير كالسيوطي ، والحافظ الذهبي ، والسبكي ، والواحدي ، ويذكر السيوطي عي كتابه :" طبقات المفسرين " أن صاحب حقائق التفسير من صنف في التفسيرمن المبتدعة ، ويقول:" وإنما أوردته في هذا القسم ، لأن تفسيره غير محمود (٦٤).

و يقول الحافظ الذهبي عنه : " وله كتاب يقال له حقائق التفسير ، وليته لم يصنفه فإنه تحريف و قرمطة ، و دونك الكتاب فسترى العجب "(٦٥).

و يقول السبكي:" حقائق التفسير ، كثر الكلام فيه من قبل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات و محال للصوفية ينبوعنها اللفظ(٦٦).

و قال أبو الحسن الواحدي: صنف السلمي حقائق التفسير ، و فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر" (٦٧).

وطعن الإمام ابن تيمية على حقائق التفسير من ناحية أخري فقال: وما ينقل في حقائق السلمى عن جعفر الصادق عامته كتاب على جعفر كما ذد كذب عليه في غير ذلك"(٦٨).

ويرد الدكتور الذهبي على هذه الطعون قائلا: إن عد السيوطي السلمى في ضمن المفسرين من أهل البدع غلو منه و إجحاف.

وأما ما قاله الحافظ الذهبي من أن ما في الحقائق تحريف وقرمطة يريد أنه كثيرا القرامطة فهذا غير صحيح ، لأن الرجل يقر الظاهر على ظواهرها والقرامطة بخلاف ذلك.

و أما ما قاله السبكي من أن السلمى قد اقتصر في حقائق على تأويلات للصوفية ينبو عنها اللفظ فهذه كلمة حق لا غبار عليها.

وأما قول الواحدي: إنه لو اعتقد أن ما في الحقائق تفسير لكفر باعتقاد هذا فنقول فيه : إن السلمي لم يعتقد أن هذا تفسير. وإنما قال: إنه إشارات تخفي و تدق إلا على أربابها ، كما صرح بذلك في مقدمة حقائق التفسير(٦٩).

و أما قول ابن تيمية : إن ما ينقل في الحقائق من التفسير عن جعفر عامته كذب على جعفر ، فهذه كلمة حق من ابن تيمية ، إذ أن غالب ما جاء فيه عن جعفر كله من وضع الشيعة عليه(٧٠).

نماذج من تفسير السلمي

ليسمع القاري بعض ما جاء فيه ، ليحكم هو بدوره عليه. فأورد السلمى في تفسير قوله تعالى: ﴿ لو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾(٧١) قول محمد ابن الفضل:" اقتلوا أنفسكم" بمخالفة هواها أو اخرجوا من دياركم" أي اخرجوا حب الدنيا من قلوبكم" ما فعلوه إلا قليل منهم"في العدد كثير في المعاني وهم أهل التوفيق والولات الصادقة"(٧٢).

و ذكر في تفسير قوله تعالى: " هو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي" قوله بعضهم:" هذا الذى بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه و سادة من عبيده فإليهم الملجأ ، وبهم النجاة ، فمن ضرب في الأرض يقصدهم فاز ونجا ، ومن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر .

و أيضا ذكر السلمى في تفسير قوله تعالى:﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءا فتصبح الأرض مخضرة﴾(٧٣) قول بعضهم :" أنزل مياه الرحمة من سحائب القربة ، وفتح إلى قلوب عباده عيونا من ماء الرحمة ، فانبتت فاخضرت بزينة المعرفة ، وأثمرت الإيمان . وأنبعت التوحيد. أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها ، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها و أناخت بين يديه ، وعكفت فأقبلت عليه ، و انقطعت عن الأكوان أجمع ، ذاك أواها الحق إليه. وفتح إليه خزائن أنواره ، واطلق لها الخبرة في بساتين الأنس ورياض الشوق والقدس"(٧٤).

و أورد في تفسير قوله تعالى:﴿ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام﴾ (٧٥). قول جعفر:" جعل الحق تعالى في قلوب أوليائه رياض انسه ، فغرس فيها أشجار المعرفة ، أصولها ثابتة في أسرارهم ، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد ، فهم يجنون ثمار الأنس في كل أوان ، وهو قوله تعالى:" فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام"أي ذات الألوان ، كل يجتني منه لونا على قدر سعته ، وما كوشف له من بوادي المعرفة وآثار الولاية"(٧٦).

و ذكر في تفسير قوله تعالى:﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قول ابن عطاء الله :" إذا شغلك به عما دونه فقد جاءك الفتح من الله تعالى ، والفتح هو النجاة من السجن البشري بلقاء الله تعالى (٧٧).

٣- عرائس البيان فى حقائق القرآن

مؤلفه هو أبو محمد الشيرازي م ٦٦٦هـ و سار في تفسيره علىمنهج واحد ، وهو منهج التفسير الإشاري ، و لم يتعرض للتفسير

الظاهر بحال وإن كان يعتقد أنه لا بد منه أولا ، يدل على ذلك ما قاله في المقدمة:(٧٨)" لما وجدت أن كلامه الأزلي لانهاية له في الظاهر والباطن ، ولم يبلغ أحد إلى كماله وغاية معانيه ، لأن تحت كل حرف من حروفه بحرا من بحار الأسرار ، ونهرا من أنهار الأنوار ، لأنه وصف القديم وكمال لا نهاية لذاته ولا نهاية لصفاته .... قال الله تعالى:﴿ لو أن ما في الأرض من شجرة أقلام و البحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾(٧٩).

وقال تعالى في موضع آخر:﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ (٨٠) فتعرضت أن أنحرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات ، والأشارات والأبديات ، التي تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء، اقتداء بالأولياء وأسوة بالخلفاء ، و سنة للاصفياء ، وصفت في حقائق القرآن. ولطائف البيان ، وإشارة الرحمن في القرآن بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة ، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ ، ثم أردفت بعد قولي أقوال مشايخي مما عباراتها الطف ، وإشاراتها أظرف ببركاتهم ، وتركت كثيرا منها ليكون كتابي أخف محملا و أحس تفصيلا واستخرت الله تعالى في ذلك ، و استعنت به ليكون لمراده ، و مواطئا لسنة رسوله و أصحابه و أولياء أمته ، وهو حسبي وحسب كل ضعيف ... وسميته بعرائس البيان في حقائق القرآن"(٨١).

وقد عقب الدكتور الذهبي (٨٢) ما قاله صاحب عرائس البيان في مقدمته إنه يعترف بالمعاني الظاهرة للقرآن ، ويقرر أن ما ذكره في كتابه ما هو إلا سوانح سنحت له من حقائق القرآن ، وإشارات تجلت له من جانب الرحمن ، كما ترى فيها وصفه لكتابه والمسلك الذي سلكه فيه ، غير أني الحظ من قوله: استعنت به ليكون موافقا لمراده ، و مواطئا لسنة رسوله . أنه يريد أن يقرر أن كل ما في كتابه من المعاني ليس إلا تفسيرا

لكتاب الله و بيانا لمراده منه ، وهذا هو ما لا نقره عليه ، ولا نسلمه له: لأن هذه المعاني العربية التي يأتي بها في تفسيره لا يمكن أن تكون داخلة تحت مدلول اللفظ القرآني ، ولا يعقل أن تكون مرادة الله تعالى من خطابه لأفراد الأمة ، وحسبه أن نقره على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن.

فنرى بعض ماورد في هذا التفسير:

و يقول مؤلفه في تفسير قوله تعالى: ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾(٨٣) وصف الله زمرة أهل المراقبات و مجالس المحاضرات . والهائمين في المشاهدات والمستغربين في بحار الأزليات. الذين انحلوا جومهم بالمجادات ، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات ، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر . وجولانها في الفكر . وخرجوا لقائدهم الصافية عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية ، بأن رفع عنهم بفضله جرج الأمتحان ، وأبقاهم في مجالس الأنس ورياض الإيقان ، وقال:"ليس على الضعفاء " يعني الذين أضعفهم حمل اوقار المحبة" ولا على المرضى" الذين أمرضهم مرارة الصبابات " ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون " الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد و حقائق التغريد" حرج" عتاب من جهة العبودية والمجاهدة، لأنهم مقتولون بسيف المحبة ، يطرحون بباب الوصلة ، ضعفهم عن الشوق ، ومرضهم من الحب ، وفقرهم من حسن الرضا...(٨٤).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾(٨٥). يعني ظلال أوليائه ، ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران ، ويأوون إليها من قهر الطغيان ، وشياطين الإنس والجان، لأنهم ظلال الله في الأرض لقوله عليه السلام:" السلطان ظل الله في أرضه يأوى إليه كل

مظلوم ".وجعل لكم من الجبال أكنانا" أكنانا الجبال : قلوب أكابر المعرفة وظلال أهل السعادة من أهل المحبة ، يسكن فيها المنقطعون إلى الله" وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر" جعل للعارفين سرابيل روح الإنس ، لئلا يحترقوا بنيران القدس" وسرابيل تقيكم بأسكم" سرابيل المعرفة وأسلحة المحبة. لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين ثم زاد نعمته و منته عليهم بقولهم:" كذلك يتم نعمته عليكم"...(٨٦).

و يقول المؤلف في تفسير قوله تعالى :﴿ وتفقد الطير فقال ما لي لا أري الهد هد أم كان من الغائبين . لأ عذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ (٨٧): إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقده ساعة ، وكان قلبه غائبا في غيب الحق ، مشغولا بالمذكور عن الذكر، فتفقده وما وجده . فتعجب من شأنه أين قلبه إن لم يكن معه ؟ فظن أنه غائب عن الحق و كان في الحق غائبا. وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم ، وهذا من كمال استغراقهم في الله ، فقال: لأعذبنه عذابا شديداً أولأذبحنه أوليأتينى بسلطان مبين " لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية ، وألقينه في بحر النكرة من المعرفة ، ليفني ثم يفنى عن الفناء " أو أذبحنه بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل....(٨٨).

وهذا التفسير مطبوع في جزءين يضمهما مجلد كبير وتوجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية.

٤- التأويلات النجمية

ألفه نجم الدين داية م ٦٥٤هـ و علاء الدولة السمناني م ٧٣٦هـ. ومات نجم الدين قبل أن يتمه فأكمله من بعده السمناني.

ويقع هذا التفسير في خمس مجلدات كبار ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٢٦.

وينتهي المجلد الرابع عند قوله تعالى في الآيتين (١٧و ١٨) من سورة الذاريات :﴿ كانوا قليلا من الليل ... هم يستغفرون ﴾ وهذا هو نهاية ماوصل إليه نجم الدين . أما المجلد الخامس فهو تكملة لهذا التفسير ، كتبه علاء الدين ، وقد قدم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهما إلا من يعرف لغة القوم واصطلاحاتهم ، ولهذا يقول فيها: لا يؤمن أحد بالذي قلته إلا بعد السلوك، ومشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان...(٨٩) ثم بعد أن فرغ من المقدمة فسر الفاتحة على طريقة القوم. مع أن نجم الدين فسرها أول الكتاب ، ثم بعد ذلك ابتدأ بسورة الطور ، وانتهى عند آخر القرآن.

وهناك فرق بين التفسيرين ، وذلك أن الجانب الذي كتبه نجم الدين يتعرض فيه أحيانا للتفسير الظاهر ، ثم يعقبه بالتفسير الإشاري قائلا: والإشارة فيه إلى كذا و كذا، وما يذكره من التفسير الإشاري سهل المأخذ ، لأنه لايقوم على قواعد من الفلسفة الصوفية. كما أنه يربط بين الآيات.

أما الجانب الذي كتبه السمناني فلا يعرج فيه على المعاني الظاهرة، كما أنه ليس فيه السهولة التي في الجانب الذي كتبه نجم الدين، بل هو تفسير معقد مغلق، والسر في ذلك: أنه بناه على قواعد فلسفية صوفية ، هذه القواعد ذكرها في مقدمة التكملة، وهي يطول ذكرها، ويصعب فهمها ، ويكفي أن أشير هنا إلى بعض منها.

فمثلا تراه يقرر في المقدمة: " أن كل آية لها سبعة أبطن ، كل بطن يخالف الآخر. فالمعني الذي يجري على هذا البطن يغاير المعنى الذي على البطن الآخر. ثم يوضح هذه البطون السبعة: فبطن مخصوص بالطبقة القالبية ، وبطن مخصوص باللطيفة النفسية ، وبطن مخصوص باللطيفة الروحية ، وبطن مخصوص باللطيفة الخفية ، وبطن مخصوص باللطيفة الحقية، ولتوضيح ذلك فسر قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا

الصلاة وأنتم سكاري"(٩٠) على هذه البطون السبعة سبع تغيرات ، كل يخالف الآخر، ثم هو لم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى القول بأن لكل آية سبعين بطنا بل سبعمائة...(٩١).

فهذا التفسير المعروف بالتأويلات النجمية يعد من أهم كتب التفسير الإشاري ، وهو أقرب إلى الفهم من غيره لو لا هذا التكملة.

و تلاحظ نماذج من تأويلات نجم الدين.

يقول عند تفسير قوله تعالى:﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر. فمن شرب منه فليس مني... ﴾الآية(٩٢) الإشارة فيها: أن الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا وماء زينتها ، وما زين للخلق فيها ، لقوله تعالى:﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ...﴾الآية(٩٣) ليظهر المحسن من المسيء، وليميز الخبيث من الطيب والقبول من المردود ، وكما قال تعالى:﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾(٩٤) ثم امتحنهم وقال تعالى:﴿ فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ يعني من اوليائى ومحبي وطلابي ، وله اختصاص بقربي و قبولي ، والتخلق بأخلاق، ونيل الكرامة مني . كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول:(أنا من الله و المؤمنون مني إلا من اغترف غرفة بيده) يعني من قنع من متاع الدنيا على ما لا بد منه : من المأكول، والمشروب ، والملبوس، وصحبه الخلق ، على حد الإضطرار بمقدار القوام ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم و أصحابه ، وكان يقول:﴿ اللهم ارزق آل محمد قوتا﴾ أى ما يمسك رمقهم...(٩٥).

وأما من تأويلات السمناني فيقول في تفسير قوله تعالى:﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً من الجنة ونجنى من فرعون وعمله و نجني من القوم الظالمين﴾ (٩٦):" ضرب الله مثلا للذين آمنوا، يعني القوي المؤمنةمن قوى النفس اللوامة" امرأة فرعون " يعني القوة الصالحة القابلة تحت القوة الفاسدة الفاعلة المستكبرة ، ما ضرها

كفر القوة الفاعلة الفاسدة إذا كانت صالحة هي بنفسها" إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون و عمله ونجني من القوم الظالمين " يعني إذ قالت اللطيفة الصالحة القابلة في مناجاتها مع ربها: ابن لي بيتا في أخص أطوار القلب... وقالت أيضا في مناجاتها: نجني من هذه القوة الفاسدة والفاعلة وعملها. و نجني من أنواعها وقواها الظالمة...(٩٧).

٤- كشف الأسرار وعدة الأبرار

ألفه الشيخ رشيد الدين أبو الفضل المبيدي، وهو من علماء القرن السادس الهجري. ويكاد يكون هذا التفسير الجامع الوحيد للقرآن الكريم باللغة الفارسية الذي ألفه عالم من علماء أهل السنة والجماعة وهذا التفسير من أشهر التفاسير المتداولة الأخرى التي كتبت بالفارسية لدى أهل السنة.

و يعتبر الشيخ المبدي من أصحاب التصوف العملي المبني على الزهد والتقشف وهو يكره الفلسفة والكلام، كما أنه يعتبر مثل أستاذه الخواجه الأنصاري الهروي م ٤٨١هـ وهو من رواد مدرسة التصوف السني التي ترى التوفيق بين الشريعة والطريق . ولا شك أن المبيدي متأثر جدا في التصوف بأستاذه الإمام الهروي حيث ينقل آراءه و أفكاره في تفسير كشف الأسرار بوفرة ، لأنه مخصص التفسير التصوفي الإشاري أو التفسير العرفاني للقرآن الكريم . ويؤكد ذلك الدكتور أبو الوفاء التفتازاني قائلاً:... إن تصوف الإمام الهروي يستند بوضوح إلى عقيدة أهل السنة . و يعتبر الرجل من أنصار الإتجاه الإصلاحي للتصوف"(٩٨).

ويمثل هذا التفسير كتابا كاملا و ضخما للتفسير الإشاري

و هذا استعرضت بعض كتب التفسير الإشاري مع نماذجها، ومنها ما يستطيع القارئ أن يحكم على فهمَ هؤلاء المفسرين لمعاني القرآن و مفاهيمه ولطائفه و اسراره والتفسير الإشاري هو تفسير الصوفية ،

وهؤلاءهم أهم مفسريه ، كما أنه القارئ يلتمس الفكرة عن هـذا التفسير بسهولة ويسر من هذا المقال الموجز.

وا لله ولي التوفيق.....

الهوامش

١- راجع الدكتور محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون: ٢/٣٩٠-٣٤٠.

٢- المصدر السابق:٢/٣٥٢

٣- الغزالي ، إحياء علوم الدين مع المعنى للعلامة العراقي، كتاب قواعد العقائد:١/١١٩

٤- انظر مقدمة لطائف الإشارات:٦

٥- المصدر السابق

٦- النيسابوري، غرائب القرآن ، ١/١١٩، والبغوي ، معالم التنزيل :١/٤٤، والرازي التفسير الكبير:٢/٣.

٧- غرائب القرآن: ١/١١٩، والتفسير الكبير:٢/٣، والتستري ، تفسير القرآن العظيم :ص٩، ١٠

٩- المصدران السابقان.

١٠- تفسير روضة الخضرار لأهل العشق والصفاء، للشيخ الحافظ محمد أحسن البشاوري المعروف بـ"حافظ دراز " م ١٢٦٣هـ مخطوط حققه الحافظ عبدالرحيم لنيل درجة الدكتوراة عام ١٩٩٤م وحصل محققه على ذلك من مكتبة الكلية الإسلامية ، جامعة بشاور برقم:٢٩، ونهج الشيخ البشاوري فيه منهج الوعاظ وهو أقرب إلى منهج التفسير الإشاري ، سوف يطبع إن شاء الله.

١١- المصدر السابق

١٢- انظر مقدمة لطائف الإشارات:٧

١٣- المصدر السابق ، و إحياء العلوم ، كتاب قواعد العقائد:١/١١٩.

١٤- المصدر السابق ، باب فهم القرآن : ١/٣٤١

١٥- الغرة: أى الغفلة.

١٦- إحياء العلوم ، كتاب العلم: ١/٣٢

١٧- مقدمة لطائف الإشارات:٨

١٨- يوسف :٨٢

١٩- الإسراء:٤٤

٢٠- سبا:١١

٢١- حم السجدة:١١

٢٢- الدخان:٢٩

٢٣- النساء:٧٨

٢٤- النساء:٨٢

٢٥- محمد:٢٤

٢٦- الشاطبي، الموافقات:٣/٣٨٢-٣٨٣

٢٧- إحياء العلوم:١/١١٩، وانظر أيضا التفسير والمفسرون:٢/٣٥٣

٢٨- التفسير والمفسرون:٢/٣٥٤

٢٩- المصدر السابق

٣٠- النصر:١

٣١- صحيح البخاري ، باب التفسير:٦/١٧٩

٣٢- المائدة:٣

٣٣- الآلوسي، روح المعاني:٦/٦٠

٣٤- إحياء العلوم، باب فهم القرآن:١/١١١

٣٥- الأنعام:٣٨

٣٦- يوسف:١١١

٣٧- الأنعام:١٢٥

٣٨- هود:١٢

٣٩- الموافقات:٣/٣٩٤

٤٠- البقرة:٢٢

٤١- التستري، تفسير القرآن العظيم:ص١٤

٤٢- العقائد النسفية وشرحها للتفتازاني:١٤٣

٤٣- الإتقان:٢/١٨٥

٤٤- البقرة :١٢٣

٤٥- فتاوى ابن الصلاح:٢٩

٤٦- فصلت:٥٣

٤٧- الفتوحات المكية:١/٢٧٩-٢٨٠

٤٨- التفسير والمفسرون:٢/٣٧٤

٤٩- فصلت:٣

٥٠- القمر:١٧

٥١- التفسير والمفسرون:٢/٣٧٧

٥٢- الإتقان:٢/١٨٣

٥٣- النساء:٧٨

٥٤- مقدمة تفسير القرآن العظيم: ص٣

٥٥- المصدر السابق:٧

٥٦- الأعراف:١٤٨

٥٧- تفسير التستري: ص ٦٠

٥٨- الشعراء: ٧٨-٨٢.

٥٩- تفسير التستري ص:١٠٦

٦٠- الصافات:١٠٧

٦١- تفسير التسترى: ص١٢٠
٦٢- التفسير والمفسرون:٢/٣٨٥
٦٣- حقائق:١-٢
٦٤- طبقات المفسرين :٣١
٦٥- طبقات الشافعية الكبرى:٣/٦١
٦٦- المصدر السابق
٦٧- الموافقات:٣/٢
٦٨- منهاج السنة:٤/١٥٥
٦٩- حقائق التفسير ، ص:١
٧٠- التفسير والمفسرون:٢/٣٨٧
٧١- النساء :٦٦
٧٢- حقائق التفسير ، ص:٤٩
٧٣- الرعد:٣
٧٤- حقائق التفسير ، ص:١٣٨
٧٥- الرحمن:١١
٧٦- حقائق التفسير ، ص:٣٤٤
٧٧- النصر:١
٧٨- عرائس ص:٤٠٢
٧٩- لقمان:٣٧
٨٠- الكهف:١٠٩
٨١- عرائس ، ج١/ص:٣٣٩
٨٢- التفسير والمفسرون:٢/٣٩١
٨٣- التوبة:٩١
٨٤- عرائس ، ج١/ص:٣٣٩
٨٥- النحل:٨١

٨٦- عرائس ، ص٥٣٤-٥٣٥

٨٧- النحل: ٢٠، ٢١

٨٨- النحل: ٢٠-٢١

٨٩- التأويلات النجمية

٩٠- النساء: ٤٣

٩١- التأويلات ، ج١، ص:

٩٢- البقرة: ٢٤٩

٩٣- آل عمران: ١٤

٩٤- الكهف: ٧

٩٥- تأويلات نجم الدين تحت تفسير هذه الآية:

٩٦- التحريم: ١١

٩٧- كشف الاسرار ، تفسير هذه الآية: ج١

٩٨- مدخل إلى التصوف الإسلامي: ١٤٩

****